إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الخامسة – العدد السابع عشر – ربيع ١٣٩٤ش / آذار ٢٠١٥م
صص ٤٩ ـ ٣١

التوظيف السياسى والاجتماعى للفكاهة فى العصر المملوكى (دراسة وتحليل)

جهانگير أميرى (الكاتب المسؤول)*
مرضيه محمدى**
فاروق نعمتى***

الملخّص

ليــس الأدب الفكاهــى حكراً على العصر المملوكى، إذ إنّــه لايكاد يخلو عصرٌ من هذا الغرض الشعرى، ولكنّ الفكاهة فى تلك الفترة بالذات لقيت رواجاً لم يسبق له نظيرٌ حتى أصبحت سمةً بارزةً من سمات العصر. ثم أنها خرجت فى ذلك العصر من إطارها الضيّق ودَخلت فى معــتَرك الحياة واحتكّت بالواقع الذى عاشــه المجتمع المملوكى. ومن هذا المنطلق أخذت الفكاهة فى تلك الآونة طابعاً شعبياً يعكس ما عاناه الشعب من آلام ومحن مصوّراً الظروف المعيشية القاسية التى خيّمت على المجتمع المملوكى. عُنِىَ شعراء الفُكاهةً فى العصر المملوكى بالقضايا السياســيّة والاجتماعية عنايةً بالغة حيث كانوا يسعون من وراءها إلى إصلاح السياسات الظالمة وتقويم المسارات الخاطئة وتحسين أوضاع المجتمع. ومن أبرز المضامين التى يحويها الشعر الفكاهى فى العصر المملوكى هى ظلم الحكام وفساد القضاة وتدنّى الأخلاق العامة والفقر المدقع الذى يعيشه الشعب وأوضاع المجتمع المتردية والمصائــب والأوبئة وما إلى ذلك من المظاهر الاجتماعية العصيبة. أمّا هذا البحث فإنّه يرمى إلى دراسة مضمونية للشعر الفكاهى فى العصر المملوكى وإلقاء الضوء على ما يجرى فى ساحات المجتمع المملوكى من قضايا سياسيّة واجتماعيّة. ومن أهمّ النتائج التى توصّلنا إليهــا من خلال البحث هو: أنّ للفكاهة فى ذلك العصر مكانة فريدة لا تُضاهى، ووظيفة اجتماعيّة وسياسيّة هامّة قامت بتأديتها فى أحسن وجهٍ ممكن. والمنهج الذى اعتمدناه فى هذا البحث هو المنهج الوصفى –التحليلى الذى يتمّ التعويل عليه فى الموضوعات الأدبية.

الكلمات الدليلية: الشعر الفكاهى، العصر المملوكى، الحياة السياسية، الحياة الاجتماعية، الفقر، فساد الحكّام، الانهيار الخُلُقى.

*. أستاذ مشارك بجامعة رازى، كرمانشاه، إيران. gaamiri686@jmail.com
**. طالبة مرحلة الماجستير فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازى، كرمانشاه، إيران.
***. أستاذ مساعد بجامعة پيام نور، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٦/١١ش تاريخ القبول: ١٣٩٣/١٢/٧ش

المقدمة

ممّا لا غبار عليه أنّ للشعر فى الأدوار الماضية وظيفة أشبه ما يكون بالوظيفة التى تمارسها وسائل الإعلام فى العصور الراهنة، إلّا أنّ الشعر فى العصور السابقة كان عالقاً فى كثير من الأحيان داخل جدران القصور المزخرفة لا يمثّل سوى حياة الملوك والأمراء وغيرهم من أهل البذخ والترف. (سليم، ١٣٧٧ق: ١٠٣) فلم يكن للشعر حينئذٍ علاقة وطيدة بحياة العامة وما يجرى فى ساحه المجتمع أو داخل بيوت الفقراء والمعوزين، ربّما لم نبالغ إذا قلنا بإنّ الشعر فى الأعصار المنصرمة كان فى أغلبه وسيلة للتسلية والمتعة. (شوكينگ، ١٣٧٣ش: ٩٥) فلايعتبر الشعر فى العصور الماضية مصدراً صالحاً لمطالعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية إذ قلّما نجدُ شعراً فى تلك الآونة يحمل فى طيّاته ما يمسّ واقع حياة الشعوب ومعاناتها، وإذا كان ثمة شعرٌ يعكس جوانب من حياة العامة فإنّه نادرٌ جداً لايسمن ولا يغنى من جوعٍ شيئاً. (بكرى، ١٩٨٠م: ٧١) أمّا الشعر فى العصر المملوكى ظهر بمظهر جديد ودخل فى طور حديث لم يعهده الشعر العربى فى الأعصار السابقة، حيث غادر الشعر فى هذا العصر، القصور الفخمة وتغلغل فى بيئة جديدة يعيشها أبناء الشعب بآلامهم وآمالهم شأنَ طائر سجين يهرب من قفصه الذهبى وينطلق فى أجواء السّماء الرّحبة مرفرفاً بجناحيه محلّقاً فى الآفاق المترامية. (موسى باشا، ١٤٠٩ق: ٥٥)

فالحرية التى حظى بها الشعر فى ذلک العصر رشّحته ليكون مصدراً خصباً لدراسة الأوضاع العامّة فى العصر المملوكى. (بكرى، ١٣٨٣: ٦٤) اكتسب الشعر المملوكى فى ضوء الظروف الجديدة صبغة شعبية حيث إنّه توغّل فى أعماق حياة الشعب واحتكّ بأحداث المجتمع المملوكى راصداً آلام الناس وطموحاتهم عاكساً مجريات العصر وأحداثه. (أميرى ونعمتى، ١٣٩١ش: ٢٦) وللفكاهة فى هذا العصر مكانةٌ رفيعة وشأن سام. رسمَ شاعر الفكاهة فى ذلک العصر لِنفسه فضلاً عن الترويح عن النفس والمتعة غاياتٍ سياسية واجتماعية مستخدماً الأدب الساخر كآلية استمدّها للوصول إلى أهدافه المرجوّة.

وكان فى اختيار الشاعر المملوكى الفكاهة أكبر دليل على ذكاءه المتوقّد؛ ذلک لأنّ

الفكاهــة تتميّز عن غيرها من الفنون بكونهــا تمتلك أكبر طاقة فنيّة ودلاليّة لتصوير ما يعانيه الشعب من حياة البؤس والشقاء. (يوسف، ٢٠٠٣م: ٣٣) ممّا يسترعى الانتباه أنّ شعراء الســخريّة فى ذلک العصر مزجوا بين المتعة والعتاب، وأبدعوا فناً يفتقد إلى حدّ كبير، لذعة العتاب ووجع الشكوى ويتمتّع فى الوقت ذاته بحلاوة الفكاهة ورقّتها وظرفها ممّــا جعل الناس يرحّبون به ويعيرونه بالــغ اهتمامهم. (أميرى ونعمتى، ١٣٩١ش: ٢٧) لقد تفطّن الشاعر المتفكّه أنّه إذا وجّه اللّوم والنقد بأسلوب يتّسم بخفّة الفكاهة ومُتعتها يأمن إذاً العقاب ويسلم من الأخطار التى تهدّد حياته بالخطر، فكثُرت الفكاهة وراجت رواجاً منقطعاً عن النظير. (موســى باشا، ١٤٠٩ق: ٧٧) وممّا زاد فى انتشاره أنّ الشعب المملوكى بمن فيه الشعراء يواجه أقسى ظروف الحياة وأتعسها من المجاعات والحروب والأوبئــة والضرائــب التى أثقلتْ كاهلــه وجعلته فى حالة يُرثى لهــا. فقد جفّت قريحة الشعراء وانحطّت مواهبهم الشعريّة نتيجة الكوارث المحدقة بهم فأعجبوا بالسخريّة التى لا تتطلّــب منهم المزيد من الجهــد والموهبة والتضحية، حيث تجعلهم بمعزل عن الأخطار والتحديّــات. إذاً كرّســوا طاقاتهم الأدبية فى الفكاهة وصبّوا مجهودهم الشــعرى فيها. (العبادى، ١٩٨٦م: ٤٨)

وأمّا الأسئلة التى يدور حولها هذا البحث هى كالتالى:

١- ما هى الميزات التى يتميّز بها الشعر الفكاهى فى العصر المملوكى؟

٢- كيف كانت مكانته فى ذلک العصر؟

٣- ما هو الدور الذى قام به فى العصر ذاته؟

٤- ما هى أبرز القضايا التى تناولها هذا الفنّ الشعرى فى تلک الفترة بالذات؟

٥- ما هى أبرز المضامين الواردة فى هذا الشعر فى الحقبة نفسها؟

مهما يكن من أمر فإنّ البحثَ يريد دراســة تحليليّة على الصعيد المضمونى للشــعر الفكاهى فى العصر المملوكى الذى راج فيه هذا اللون من الشعر رواجاً كبيراً. وذلک فى ظلّ الفرضية التى تقوم على القول بأنّ الفكاهة فى ذلک العصر دخلت فى معترک الحياة واحتكّــت بالواقع المعاش للمجتمع آخذة على عاتقها التصوير الدقيق للأوضاع العامة بشيءٍ من النقد اللاذع وبأسلوبٍ يشوبه العتاب والشّكوى.

خلفية البحث

لم يتم لحدّ الان بحثٌ يقوم بدراسة الأدب الفكاهى ودوره فى تصوير الحياة السياسيّة والاجتماعيــة فى العصر المملوكــى، ولكن أُعدّت مقالاتٌ وأطروحات جامعيّة تســلّط الأضواء على جوانب متعددة من الحياة العامة فى عصر المماليک؛ ومنها مقالة "التحامق فى الشــعر المملوكى، دراســة وتحليل؛ لجهانگير أميرى وفاروق نعمتى فى مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ٢٢" إذ يرمى هذا المقال إلى دراســة شعر التحامق ومضامينه وأســباب شــيوعه فى العصر المملوكى. ومقالة "السخريّة، مكانتها ومضامينها فى شــعر رهى معيرى ومحمّد مهدى الجواهرى، دراســة مقارنة؛ لجهانگير أميرى ورضا كيانى فى مجلة العلوم الإنســانيّة الدوليّة، العدد ٣/١٩" ومقالة "الســخريّة السياسيّة فى شــعر دعبل الخزاعى؛ لجمال طالبى وآخرين فــى الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ٢٥" ومقالة "أســاليب استعمال الفكاهة فى التصاوير الفكاهية لدى أحمد مطر؛ ليحيى معروف فى الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ١٠"

جديرٌ بالذكر أنّ التحامق ضربٌ من الفكاهة إلّا أنّه كما ســنوضّحه فى محلّه إن شاء اللّه يختلــف عنها باختلافــاتٍ جوهريةٍ. أمّا الســخريّة أو الازدراء مضمونٌ عامٌ يرد فى الأشــعار الفكاهيّة يهدف إلى التشهير والتعريض بالأشــخاص لأسباب متعدّدة تكون أســباباً فرديّة فى معظم الأحوال وهذا اللون الشخصى من الفكاهة قلّما نجده فى الشعر الفكاهــى فى العصــر المملوكــى ذلک لأنّ الفكاهــة فى ذلک العصر يميــل غالباً ما إلى نقــد الأوضاع بنبرةٍ عتابيّة تثــير صدمة أو هزّة داخل المجتمع ربّما تؤدّى إلى تحســين الأوضاع. بناءً على ذلک قلّ توجّه شــعراء الفكاهة فى ذلک العصر إلى الســخريّة من الأشــخاص التى لا طائل تحتها سوى التحريض على المواجهة بالمثل بل ترمى الفكاهة المملوكية إلى التّعريض برجال الحُكم الظالمين والأمراء الفاســدين وقضاة السوء وغير ذلک من ذوى مناصب رفيعة يستغلّون مناصبهم.

تحليل الموضوع

نبذة عن الحياة السياسية والاجتماعية فى العصر المملوكى

إنّ لفظة "المماليک" تســمية أطلقت على مجموعة من العبيد اشتراهم الأيوبيون من

أسـواق النخاس ووظّفوهم فى شؤون العسكر والقتال، ولكنّهم أطاحوا بالحكم الأيوبى بعد أن قويت شوكتهم وصاروا قوّة لا تُطاق. سمّيت الدولة التى أشادها المماليک بالدولة المملوكية نسـبة إليهم. (العبادى، ١٩٨٦م: ٥٢؛ العريـنى، ٢٠٠١م: ١٠٧) حفلت الدولة المملوكية بالمزيد من المصائب والويلات التى حوّلت حياة الشـعب إلى كابوس مروّع. خاضت الدولة المملوكية معارک دامية ضدّ الصليبين والمغول. كان الغزاة المغول زحفوا إلى البلدان التى يحكمها المماليک واجتازوا الحدود إلّا أنّ المماليک الأشـاوس صّدوا هجومهم العنيف بكّل قوّة وبسالة وكانت النكبة المغولية قد اجتاحت الكثير من البلدان فى تلک الآونة. (أميرى، ١٣٨٨ش: ١٧)

لم يكـن الغزو المغولى الخطرَ الوحيد الّذى يهدّد دولـة المماليک بل كان الصليبيون يهجمـون على تلـک الدولة الفتيّة بين فينة وأخرى. وذلک لأهـداف اقتصادية ودينيّة هامّة، وربّما كان استرجاع بيت المقدس هو الغاية الرئيسية التى يسعى وراء تحقيقه حملة الصليـب بجهد لا يعرف الكلل ولا الملل. (الـركابى، ١٩٩٦م: ٧١) ولكن ظَلّ المماليک يُدافعـون عن دولتهم على قدم وسـاق، فلـم يدّخروا جهداً للذّود عـن حماهم، فإنّهم سهروا على حماية دولتهم التى تأسّستْ فى ظِلّ رآية إسلامية عربية. (العبادى، ١٩٨٦م: ٦٠) إنّ الانتصارات التى حقّقها المماليک جعلت الشـعراء يمدحونهم ويتغنّون بالحماس الرائـع الذى أبـدوه فى حروبهم ضّد الغـزاة الأجانب ولكن لم تمنع هـذه الانتصارات الشعراء من تصوير المصائب الناجمة عن المعارک أيضاً. فإنّ تكاليف الحروب الباهضة أرغمـت المماليک على فرض ضرائـب أثقلتْ كاهل الشـعب لتمويل نفقات الحروب المكلفة. (العرينى، ٢٠٠١م: ١٠٩) وممّا زاد الطين بلّةً كثرة الكوارث الطبيعيّة التى كانت تحصد الأرواح يومياً. فالمجاعة، والقحط، والزلازل، والأوبئة حوّلت حياة الشـعب إلى جحيم هائل. لقد انعكسـت الظروف المعيشية الصعبة على أخلاق المجتمع سلباً فساءت الأخـلاق وطغت الذنوب والآثام والرذائل على الفضائل وكثُرت المسـارات الخاطئة. (موسـى باشا، ١٤٠٩م: ٨٣) فبطبيعة الحال مارس شعراء الفكاهة، الدورَ الذى تمارسه وسـائل الإعلام فى العصور الراهنة. فسـجّلوا كل مـا رأت أعينهم وسمعت آذانهم من مشاهد مروعة وأحداث كارثيّة بأساليب الفكاهة.

بات أدب الفكاهة فى ذلک العصر وكأنّه أرشـفة سُجلّت فى صفحاتها صورٌ وأصداء عن الحياة السياسـية والاجتماعيّة. المشـاكل التى جثمت على صدر المجتمع المملوكى أفسـدت قرائح الشـعراء وهدّت موهبة الإبداع والخلق لديهم حيث أدّت إلى إشـاعة الفكاهـة وهى لون شـعرى لا تنحصر وظيفته فى الإضحـاک والتنفيس بل يُعطى أيضاً صورة واضحة صادقة عن معاناة المجتمع ومأسـاته. (ضيف، ١٩٩٨م: ١٧٤) وفيما يلى نسـتعرض نماذج من الأدب الفكاهى المتعلق بالعصر المملوكى الذى يعكس فى طيّاتها أصداء واضحة للحياة فى ذلک العصر.

أبرز معالم الفكاهة فى العصر المملوكى

لقد أسلفنا توّاً أنّ الفكاهة لا تقتصر على العصر المملوكى دون غيره من العصور إذ أنّ العصور كلّها شهدت نماذج من هذا الفنّ بشكلٍ أو آخر. إلّا أنّه يمكن القول بأنّ الفكاهة فى الأدوار السابقة أخذت طابعاً فرديّاً يحمل لوناً من السخريّة والاستخفاف بالأشخاص لغرض المنافسـة أو المخاصمة أو توفير أجواء ترفيهيّة تتناغم مع مجالس اللهو والمجون. ثمّ أنّ الفكاهـة فى الحِقَب الماضية تعيش بعيدة عـن المجتمع ولا تولى اهتماماً بالقضايا السياسـيّة والاجتماعيّـة. فما إن دخلت الفكاهة العصرَ المملوكى حتّى شـهدت تطوّراً ملحوظاً شـأن سائر الأغراض الشـعريّة فى ذلک الظرف الزمنى. فغدت تكتسب صبغة سياسـيّة واجتماعيّة حيث تناولت القضايا التى تمسُّ واقـع الحياة المملوكيّة. مع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ الشـعر الفكاهى فى ذلک المقطع الزمنى بات يكتنفه شىءٌ من السخريّة والعتاب جعله أشـدّ لذعةً ومضاضةً. (أنس، ٢٠١٠م: ٥٨) ولابدّ للذكر أنّ ثمة فوارق بين التحامق الذى شـاع شـيوعاً واسـعاً فى الحقبة المملوكيّة والفكاهة فى الوقت نفسه. إنّ التحامق ضربٌ من الفكاهة يشترک معها فى طابعه الهزلى والفكاهى إلّا أنّه يختلف عنها بأنّه يسـعى جاهداً لإضحاک المخاطبين بإعطاءه صورة هزليّة كاريكاتيريّة عن الشاعر تنـمّ عن حماقته وبلادته أو تظاهره بهما على أقلّ تقدير. (إبراهيم، ١٩٥٨م: ٩١) والغاية التى ينشـدها الشاعر المتحامق قد لاتمتّ إلى الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة بصلة بل تتمركز فى الأغلب على خلق تصاوير فكاهية تسـاعد على الانغماس فى غمار المجون

والخلاعــة. (خربــوش، ١٩٨٢م: ١٢٣) خاصةً فى المجتمع الــذى عانى أبناءه من معاناة الحياة وآلامها فظلّوا فى أمسّ الحاجة إلى مضامين فكاهية مضحكة تزرع ابتسامةً على شــفاههم وتخفّف بعض همومهم. أمّا الفكاهة فإنّها تقف على مســتوى أعلى وأسمى من التحامق مادامت أنّها تُعنى بالقضايا السائدة على المجتمع فإذا كان هناك غرضٌ ترفيهى لها فهــو يقع فى الهامش وفى الدرجة الثانية لايتصدّر أولويات الشــاعر بتاتاً. (الخليلى، ١٩٧٩م: ٦٧) خُــذ مثالاً فى هذا المضمار يوضّح لک القارئ الكريم الفارق بين الفكاهة والتحامق. لقد أورد بديع الزمان الهمذانى فى مقامته الساسانيّة أبياتاً كشاهدٍ على جنوح الشعراء فى العصر المملوكى إلى ظاهرة التحامق وهى:

هذا الزّمان مشئومٌ كما تراه غشــومُ
الحمقُ فيــه مليحٌ والعقلُ عيبٌ ولؤمُ
والمال طيفٌ ولكن حول اللِّئام يَحومُ

(الهمذانى،١٩٦٢م: ٢٦٠)

من الملاحظ فى الأبيات الســابقة أنّ اهتمام الشــاعر المتحامــق ينصبّ فى الأغلب فيجمع المال والثروة فاســتخدم المتحامقون بضاعتهم الشــعرية كأداة تحقّق لهم مكاسب وأرباحاً ماديّة فى الوســط الّذى يتهافت أبنائه على الأشــعار الفكاهية. خلاصة القول إنّ شعر التحامق لا يبالى فى الوهلة الأولى بقضايا تهمّ أبناء المجتمع. بل يصبّ الشاعر المتحامــق جلّة اهتمامه فيما يتعلق بقضايا شــخصية فى ظروف تحــوم حولها هالة من العبثية والإباحية. من هذا المنطلق أنّ التحامق لون من الفكاهة يأخذ فى الأغلب طابعاً شخصياً أو ذاتياً بينما تكون الفكاهة التى نحن بصدد دراستها فى هذا المقال ذات صبغة سياسيّة واجتماعيّة حيث تعيش فى نطاقٍ اجتماعى واسع آخذةً على عاتقها مسئوليّات ترتبط بالفرد والمجتمع معاً. وفيما يلى نقوم استعراض الأسباب والعوامل الّتى أدّت إلى شيوع الفكاهة فى العصر المملوكى.

النزعات الاجتماعية والسياسيّة للفكاهة

للفكاهة فى العصر المملوكى دورٌ بارزٌ ومكانة متميّزة قلّما نجدها لغرض شعرى آخر

فى الفـترة ذاتها. (أميرى، ١٣٨٨ش: ١٢٣) كان الشـاعر فى ذلـك العصر يمّر فى أغلب الأحيان بأحداث صعبة مأسـاويّة لا يسـتطيع احتمالها ولا يجرء فى الوقت نفسه على المواجهة والرفض، فجعل الفكاهة أداة طيّعة للتعبير عمّا يتجوّل فى خاطره من مشـاعر الرفض والاحتجاج دونما خوفٍ من أن يمسّـه سـوء أو مكروه. (بكرى، ١٩٨٠م: ١٠٩) وفى هذا السياق صوّب شعراءُ الفكاهة سهام نقدهم الساخر إلى الحكّام والأمراء وكلّ من تقع على عاتقهم المسئولية عن أوضاع المجتمع الرهيبة وفيما يلى نقوم بعرض نماذج بارزة من الأشـعار الفكاهية التى تعكس الظروف السياسـية والاجتماعية التى يمرّ بها المجتمع المملوكى بادئين بـ:

١.السخريّة من الحكّام

احتـلّ الازدراء بالحكّام حيّزاً كبيراً من شـعر الفكاهة فى العصـر المملوكى. انتقد الشعراءُ السـلاطينَ الجائرين والحكّام الناهبين لممتلكات الشعب بأسلوب ساخرٍ فكهٍ. فالشاعر "ابن عنين" رسم صورة كاريكاتيرية بريشته الشعرية عن سلطان معوّج وكاتبه الأعمى ووزيره المحدودب ووالٍ دميم الخلق وقائد جيش معتدّ بنفسه أخذته العزّة بالإثم فتخيّل كيف تكون الحياة فى ظلّ هذه الطغمة المشـوهة؟! لايطيق هذه الظروفَ القاسية سوى من يحترف العهر والدّعارة والخداع:

قَد أَصبحَ الرزقُ مَالَهُ سَبَبٌ ... فى النّاسِ إلّا البَغاءُ وَالكذبُ
سُـلطانُنا أعَـرجُ وَكاتِبُـهُ ... ذو عَمشٍ وَالوَزيرُ مُنحَدِبُ
وَصَاحبُ الأمرِ خُلقُهُ شَرِسٌ ... وَعارضُ الجَيشِ دَاؤه عُجبُ

(نقلاً عن: الصفدى، ١٩٦١م: ٢٨٩/٢)

وفى النموذج التالى خلق الشـاعر المملوكـى النّابه صفيالدين الحلى أجواء فكاهية عرَّضَ من خلالها بالولاة الذين يظلمون الرّعية ويُسيئون معاملتها؛ تارة يتحدّث الشاعر عـن ظلم الـولاة وأخرى عن قصدهم لإصلاح الرعية. كيف يمكـن أن يكون الظالم هو المصلح يا تُرى؟! فتكمن الفكاهة فى صلب هذه الازدواجيّة. إنّ الولاة فى نظر الشاعر فئة ظالمة تظّن وتدّعى أنها تُصلح الأمة ولكنّها تفسدها. فيقول الشاعر ساخراً منهم إنّما

يتمّ إصلاح الرعية بالعدل وليس بالظلم!:

رَعَى اللهُ قَوماً أصلَحُونَا بجَورِهم وَعــادةُ إصلاحِ الرَّعيــةِ بالعَدل
عَرَفنا بِهم حَــزمَ الأُمورِ وَلَم نَكُن لِنَحسَبَ حُسنَ الظَّنِ نَوعاً مِنَ الجهلِ

(الحلّى، ١٩٨٠م: ٣٧٥)

فى المقطع الثالث يجعل الشــاعر صفى الدّين الحلّى لقب أحد الملوك "سـيف‌الدين" مــادة دسِمة لخلق أجواء فكاهية رقيقة يكشــف فيها النقاب عــن وجه الحكّام الظالمين الّذين لقّبوا أنفسهم بسيف‌الدين ولكنّهم لا يقطعون سوى أرزاق الرعيّة وأقواتها:

إنَّ سُــلطانَنا الّذى نَرتَجيه واسِعُ المَالِ ضَيّقُ الإنفاق
هُوَ سَــيفٌ كَمَا يُقالُ وَلكن قاطِعٌ لِلرُّســوم والأرزاقِ

(نقلاً عن: أنس، ٢٠١٠م: ١٢٨)

بلغ "صفى الّدين الحلّى" أنّ والى خراســان "ابن‌كبش" عُزل عن الحكم وحلَّ مكانه "ابنذئــب" فلــم يلبث الحلّى أن ينظم بيتاً يتمتع بفكاهة رائعة تستأنســها القلوب. يقول الحلّى فى بيته إذا لم يســتطع الرعية احتمال ظلــم "ابن كبش" فكيف لها أن تحتمل ظلم ابن ذئب!؟:

رَعايا مَا أطاقُوا بأس كَبشٍ مُحالُ أن يُطيقُوا بأسَ ذئبِ

(الحلّى، ١٩٨٠م: ٦٢٥)

٢. السخريّة من عمّال الحكومة

شــهد المجتمع المملوكى ظلم العمّــال ونهبهم وعدوانهم، فــراح المتفكّهون فى ذلك العصر ينتقدونهم ويشــوّهون وجوهَهم وينهالون عليهم بطعونهم الّتى غلّفوها بغلاف من الفكاهة والهزل. (ضيف، ١٩٩١م: ٧١) ها هو "البوصيرى" الّذى شهّر بالعديد من ذوى المناصــب الرّفيعة فى عصره، تفكّه فى الأبيات التالية بعمّال الحكومة الذين انحرفوا عن الصراط المســتقيم فإنّهم طغمة قذرة خبيثة لو ســكنت الجّنة لَحوّلتها إلى الجحيم! هذه الطائفة الشريرة لوّثت البلاد كلّها بحيث لم يسلم بلد من خبثها وقذارتها وشيطنتها. شبّه "البوصيرىُ" عمّالَ الســوء بالشــياطين الّتى دمّرتْ الآفاق برمّتها، و إذا تخيلنا النجوم ســهاما يُضرب بها الشــياطين فلا بدّ أن تملأ الســماء بالنجوم مادامت أنّ الآفاق مليئة

بالشياطين التى لا يُمكن قطع دابرها:

أرى المستخدمينَ مشواجميعاً عَلَى غَيرِ الصِّراط المستقيم
مَعَاشِر لو وَلُّوا جَنَّاتِ عَدنٍ لَصارت مِنهُم نارَ الجَحِيم
فَما مِن بَلدَةٍ إلّا وَمنهُم عَليها كلُّ شيطانٍ رَجيم
فلو كانَ النُجُوم لها رُجُوماً إن خَلَتِ السَّماءُ مِنَ النُّجُوم

(البوصيرى، ٢٠٠٧م: ٣٤٥)

فرضت دولة المماليک ضرائب أثقلت كاهل الشعب وألقت بظلالها على المجتمع. كان محصّلوا الضرائب يصادرون أموال الشعب وممتلكاته دون رحمةٍ عليهم ولا إشفاق. (ضيف، ١٩٩٦م: ١٠٥) وممّن صوّر لنا حالة البؤس والشقاء الّتى عاناها الشعب هو الشاعر المملوكى، البوصيرى. لقد تمكّن هذا الشاعر أن يرسم لنا صورة فكاهية خيالية تدّل على مدى معاناة الناس إزاء جُباة الضرائب. فقد كان للبوصيرى أتانٌ أحبلها الشاعر، فعندما جاءه محصّلوا الضرائب ليأخذوا منه الأتان للضريبة، بدأت الأتان تخاطبهم وتحدّثهم بلغتهم داعيةً إيّاهم إلى عدم الأخذ بها إذ طالما تكون حاملاً لا يحّل لهم اصطحابها معهم:

يا أيُّها السّيدُ الّذى شهِدَت ألفاظُهُ لِى بِأنَّهُ فَاضِلُ
ما كان مِثلِى يُعيِّرُه أَحَدٌ قطُّ وَلكِن سَيِّدى جَاهِلُ
وَبعد هَذا فَمَا يَحِلُّ لَكُم مِلكى فإنِّى مِن سَيِّدى حَامِلُ

(ابن تغرى بردى، ١٩٨٩م: ٤/ ٣١٣)

لو تأملت فى الشعر المملوكى لرأيت أنَّ صورة الحياة فى ذلک العصر صورة قاتمة غطّت آفاقها الغيوم المظلمة وعصفت بأرجائها العواصف الهوج، لقد شحن الشاعر المملوكى السخريّة بآهاته وزفراته بحيث لو أصغينا إليها لَسمعنا بالأنغام الحزينة التى تعزفها قيثارة كلماتها. تلک لأنّ الشكوى يُعدّ من أهّم مقوّمات الفكاهة وتشكيلته البنوية فلا غرو إذاً أن نشعر فى هذا النسيج الشعرى شعورين متناقضين جنباً لجنبٍ؛ الشعور بالتسلية والتنفيس، والشعور بالحزن والأسى.

خُذ الأبيات التى قالها البوصيرى حول العّمال الفاسدين فى عصره مثالاً: فالشاعر

يتمنّى لو كان له عليهم سلطان وسيطرة يقلع به أسنانهم واحداً تلو الآخر، لكى لاتبقى لهم سنٌّ يأكلون بها أموال الشعب ثم يندّد بسلوكهم السّيِّئ وسيرتهم الفاسدة فيشبّههم بأسلوب ساخر، بالجاموس الضخم الذى يُحلبُ. لأنّ الأموال التى أكلها العّمال ظلماً جعلهم كالجاموس السمين والضخم الذى يُحلب وتستدّر منه كمية هائلة من الحليب:

لوكُنتُ أملكُ أمَرهُم من غيرَتى لَم أَبقَ للمستخدمينَ ضُرُوسا
يَرعونَ أَموال الرّعيّة بالأذَى لو يُحلَبُونَ لأشبَهُوا الجَاموُسا

(البوصيرى، ٢٠٠٧م: ١٥٣)

وبلغ الفكاهة أشدّها حيث نسب الشاعر الحلوبة إلى العّمال الفاسدين دون الجاموس وفى هذا التعبير الساخر فكاهة لطيفة لا تخفى على ذوى الفطنة والذكاء. هى أنّ الشاعر يريد أن يقول إنّ هؤلاء العمال الفاسدين لكثرة ما أكلوا من أموال الرّعيّة ربّما قد خرجوا من صورتهم الإنسانية وأصبحوا كالجواميس لو حُلبوا أنتجوا الكثير من الحليب. فلم تخمد شرارة نيران سخط البوصيرى ضدّ العمال الفاسدين قط بل ازدادت حدّتها كلّما تزايدت القبائح الّتى صدرت من الحكومة وعواملها. ممّا يزيد غضب البوصيرى حدّةً وشرارة نفاق الحكومة وعمّالها، فإنّهم يدّعون ويتظاهرون بأنّهم حُماة الشعب ورعاتها مع أنّهم لم يألوا جهداً فى خيانتهم وخذلانهم. ثم بادر البوصيرى إلى سرد قصّة قد تكون خياليّةً أو ربّما استقاها من واقع حياته.

يحكى لنا الشاعر أنّ لصّاً سرق من أحد أصدقائه ثوبه ولم يكن للصديق سوى ذلك القميص المنهوب، فلزم البيت إذ كان يتعذّر عليه الخروج عارياً فتظلّم إلى الوالى، لكنّ الوالى بدل أن يحكم لصالح الرجل البائس راح يسىء معاملته، كأنّ الوالى رأى بين يدى مكان الرجل العارى، عدوَه اللّدود قائد الجيش الصليبى أفرنسيس الذى كان الوالى يخافه ويكرهه شديداً! ولم يقف ظلم الوالى عند هذا الحد بل أخذ يطلب من الرجل الشاكى الشاهد أو الدليل الذى يثبت له ما يدّعيه كأنّ مثول الرجل أمامه عارياً لم يكن كافياً لإثبات دعواه:

لى صَاحِبٌ سَرَق اللُّصُوصُ ثيابَهُ ليلاً فباتَ ببيته مَحبُوسا
وَشكا لِوالى الحَرَب سارِقَ بَيتِهِ فكأنّما يَشكو لَهُ أفرنسيسا

وكأنّهُ قـاضٍ يقول لِخصمِـه: هذا غَريمُكَ أثبتِ التّفليسـا

(البوصيرى، ٢٠٠٧م: ١٥٣)

٣. السخريّة من القضاة الطامعين

لقد تأصّل الفساد فى جذور المجتمع المملوكى ودبّت الفوضى فى جسمه دبيب السوس فى العظام. ومن ثَمّ استشـرى الفسـاد إلى كافّة أنحاء المجتمع فَفَسـد القضاة وانتشرت الرشوة وأصبح القاضى يحكم لصالح مَن لا حقّ له مقابل دراهم معدودة. ينتقد زهير وهو من شعراء الفكاهة فى العصر المملوكى جنوح القُضاة إلى الظلم والرشوة ويقول ساخراً إنّ القضـاة فى مصـر يأكلون مواريث الأيتام أكلاً لمّا، فـإذا أراد أحدٌ أن يحكم القاضى لصالحه ظالماً كان أو مظلوماً ليس عليه سوى أن يدفع له بعض الدّراهم:

فى مِصرَ مِنَ القُضاة قاضٍ وَلَهُ فى أكلِ مواريـث وَلَـهْ
إن رُمتَ عَدَالةً فَقُل مُجتهداً مَن عَدَّ لَـهُ دراهماً عَدَّلهْ

(الزهير، ١٩٨٠م: ٣٢)

وظّف الشاعر المملوكى الجزّار هلالَ الشوال مادّةً خصبةً لِخلق أجواء الدعابة تطرّق الجزّار بدوره إلى نزوع القضاة نحو الفسـاد وتلاعبهم بعقول الناس. فتحدّث بأسـلوب هـازل عن قاضٍ أغمـض عينيه على الحقّ، فإنّه رغم شـهادة العدول على رؤية هلال الفطر يحكم بعدم حلول عيد الفطر وبطلان الاستهلال، تبلغ الفكاهة ذروتها عندما يقول الشاعر كأنّ عيد الفطر من أموال اليتامى، يريد القاضى ضبطه وسلبه لنفسه جرياً على عادته فى نهب أموال الآخرين ووضع اليد عليها. كأنّ الجشع بلغ فى نفس القاضى مبلغاً لم يعد يقتنع بأموال الرعية فى وجه الأرض بل أصبح يريد سلب الهلال فى السماء أيضاً:

أ تـرى القاضِـى أعمَـى أم تـراه يتَعامـى
سَـرِقَ العيـد كأنَّ العـ ـيـد أمـوالُ اليتامـى

(الهاشمى، ١٩٧٨م: ٣٣٣)

٤. السخريّة من بخل الأغنياء

كان المجتمع المملوكى يعانى من البخل كظاهرة اجتماعية منتشرة. ممّا زاد من أهميّة

البخل كسلوكٍ اجتماعى ردىّ أنه كان ناجماً عن تفكّك القيم وانهيار الأخلاق، ويدلّ على غياب حالة المواساة والضمان الاجتماعى بين أبناء المجتمع. فتحوّل البخل فى ذلك العصر من ظاهرة فردية إلى ظاهرة اجتماعية تركت بصماتها وتبعاتها السيّئة على حياة الفرد والمجتمع. (الركابى، ١٩٨١م: ٥٣) لم يغب هذه الظاهرة عن بال الشاعر المملوكى اليقظ، فإنّه أخذ معه عدسته الشعرية إلى داخل المجتمع مصوّراً نماذج البخل المتعدّدة فى البيئة المملوكية شأن وسائل الإعلام فى عصرنا الراهن. فها هو صفيالدين الحلّى يضعنا أمام صورة البخل المتفشّية فى عصره مستخدماً الأدب الساخر ببراعة فائقة، فهو يرسم صورة كاريكاتيرية شوهاء من إنسان جشع بخيل يتطفّل على رعاة ويتناول من طعامهم رغم ادّخار نقوده قرشاً قرشاً. يأكل هو مع غلمانه ممّا تبقّى لهم من طعام البارحة دون أن ينفق شيئاً من ماله. ثم أخذ الشاعر فى وصف بخله بأسلوب يُعلى الضحک على شفاه السامعين. فيقول لو وجد ذاک البخيل قطعة من اللحم فى قِدره لقَرأ عليها آية الكرسى لتُبعد عنها كلّ سوء أو مكروه. من المستحيل أن يتمتّع أحد من رغيفه بحواسّه الخمس. فلو قدّر لأحدٍ أن يتمتّع من خبزه بسمعه وبصره وشمّه فإنّه لمن المستحيل أن يتمتّع منه بلمسه أو ذوقه. عندما يريد أن يأكل الطعام يُغلق أبواب بيته كلّها كيلا يفاجئه ضيفٌ. فإذا جاءه ضيف على حين غفلة منه يحاول البخيل زجره وقهره بالتّجهم والوجوم، فإذا فشلت محاولته وأصرّ الضيف على البقاء، يقدّم له من أسباب القرى، الدّبس والخبز فقط. فإن أخذ الضيف أكثر من لقمة طرده البخيل من بيته بركلةٍ قويّةٍ:

مملوكُک اليوم أبوحُبّةٍ ... مُجتَهِدٌ فِى خِسّة النّفسِ
يُزاحِمُ الجُمَّالَ فى قُوتِه ... وَيخزَنُ الفَلسَ عَلَى الفَلسِ
يَأكُلُ وَالغِلمانَ فى يَومِه ... فُضلة مَا قَد كانَ بِالأمسِ
إذا رأى فى قِدرِهِ لَحمَةً ... تَلا عَلَيها آية الكُرسى
وإن رأى فى بيتِهِ فَأرةً ... بَادَرَها بالسَّيفِ وَالتُّرسِ
يجِلُّ أن تُدرِکَ رَغَفاتِه ... حواسُ مَن يأتيه بِالخَمسِ
بالسَّمعِ وَالأبصارِ وَالشَّمِّ قَد ... تُدرکُ دونَ الذَّوقِ وَاللَّمسِ

يقفُـلُ عِنـدَ الأكلِ أبوابَهُ خوفاً عَلى الزَّادِ مِن الكَبس
فَإن أتَـى ضَيفٌ على غِرَّةٍ قَابَلَـه بالتَعـسِ والنَّكسِ
يَلقى بِالتَّرغيبِ فى الاحتماء وَبَعـدُ بِالخُبـزِ والدِّبـسِ
فـإن تَعَـدَّ أكلُـه لُقمَـةً رأيتَ فى أضلاعِه رَفسـى

(الحلّى، ١٩٨٠م: ٣٦١)

والشـاعر المملوكى الجزّاز يستخدم بدوره البخل أداةً لتوفير أجواء المداعبة والهزل فإنه يتحدّث عن رجل بخيل لايتحمل أن يرى أحداً يكسر رغيفه ويأكل منه فأنت ترى دائماً رغيفه كاملاً غير منقوص منه فإنّ حبّه للخبز بلغ حداً لو شاء أن يصلّى (وهو أمرٌ قلمّا يحدث) لقال بدل "الله اكبر" "الخبز أكبر":

لا يستطيعُ أن يرى رَغيـ فاً عَندهُ فِى البيت يُكسَر
فلـو أنَّهُ صَلَّـى وحا شاهُ لَقالَ الخُـبزُ أكبَر

(نقلاً عن ضيف، ١٩٩١م: ٣٧٧)

يصّور الجزّار فى مقطع آخر من شعره الفكاهى بخل أحد الأمراء الّذى لُقّبَ بيعقوب، لأنّه كلّما اسـتعطاه ذو حاجة دعاه إلى الصبر الجميل ووعده بأجلٍ غير مسـّمى، ولا يخفى أنَّ يعقوب الذى شـّبه به البخيل هـو النبىّ يعقوب الذى صار مثلاً فى الصبر على المكاره والمصائب، والفكاهة تكمن فى أنّ الجزار يريد أن يلمح بسـخرية طريفة إلى أنّ يعقـوب البخيل كان صبوراً مثلما كان يعقوب النـبىّ؛ إلّا أنّ النبىّ (ع) كان يصبر على المحن والبلايا، ويعقوب البخيل كان يصبر على عدم الجود والسـخاء، فكلا هما يتّسـم بصفة الصّبر ولكن بينهما بَونٌ شاسع:

يا أيُّها المَولـى الذى لِنَدَى كَفَيهِ كُلُّ الجُودِ منسُـوبُ
لاغَرَو أن أصحبتَ تأمُر بالـ صّبرِ الجَميلِ، فأنتَ يَعقوبُ

(نقلاً عن، ابن سعيد، ١٩٥٢م: ٣١٩/١)

٥. التفكّه بالفقر

شـاع الفقر فى العصر المملوكى شيوعاً واسـعاً، حيث ترك بصماته على حياة الفرد والمجتمع. كانت الفكاهة فى ذلك العصر تعمل على تصوير مشـاهد الفقر والبؤس كآليّةٍ

فنيّةٍ ذات مفعول قويّ وإيقاعٍ مؤثّر. فكما أشــرنا ســابقاً أخــذت الفكاهة على عاتقها مهّمة التعبير عن معاناة الفقراء وظروف حياتهم المأســاويّة. وكانت السخريّة خير أداةٍ لتجســيد الفقر المميت الذى تعيشه الطبقات المنكوبة والمسحوقة، والسبب فى ذلک يعود إلى الطاقة الفنية الواســعة التى تتميّز بها الفكاهة؛ فإنّها منظومةٌ فنيّةٌ مكوّنة من الهجاء والعتاب والهزل، تمتلک رصيداً معنويّاً هائلاً يســتغلّه شاعر الفكاهة للتعبير عمّا يجيش فى صدره.

فالشاعر المملوكى أبوالحســين الجزّار صوّر لنا الفقر الذى جثم على صدره معرّضاً بمعلقة[1] شــهيرة لامرئ القيس مطلعها: "قفانبک"، فإنّه يقف ويستوقف ويبكى ويستبكى، ولكــن لا لمنازل فى "الدخول" و"الحومل" بل حُزناً على قميصه البالى الذى فقده. ثمّ أنّ حاجة الشــاعر إلى السكن فى حظيرة دافئة أشغلته عن حُبّ الأطلال والرسوم. يفضّل الجــزّار حيازة جُبّةٍ متهرّئة على امتلاک المال. فإنّه تخلّــى عن كلّ ما ينتمى إلى المجد واكتفى منه بقميصٍ بالٍ يقيه البردَ القارس والحرَّ القاسى:

قِفا نَبکِ مِن ذِکرى قميــص وسروالِ ... وَدُرّاعــةٍ قَــد عَفَا رَسمُهــا البَــالى
وَما أنــا مَن يَبکــى لأسماءَ إن نَأَت ... وَلکنَّــنى أبکــى عَلَى فَقــدِ أسَمالى
وَلى مِن هَوى سَکَنى القَياسِ عَن هَوى ... بُتُوضِــحَ فَالمقراةُ أعظَمُ أشــغالى
ولکنَّنى أسَــعى لِمَجــدٍ جُوخَــةٍ ... وقَــد يُدرِکُ المجــدَ المؤثّلَ أمثالى

(نقلاً عن: الصفدى، ١٩٦١م: ٢/٥٠٠)

لأبى الحســين الجزّار أبيات تصف للمخاطب فقر الشــاعر وفاقته. يتحدّث الشاعر عن لباس رثٍّ ارتداه الشــاعر دهراً طويلاً حتى بلى واندثرت معالمه كلّها، فإذا وســخ القميص أخذ الشــاعر يدوسه ويركله ويعصره ويدقّه فيتحمّل الثوب عبر عمليّة الغَسل عناءً شــديداً دونما ذنب ارتكبه كأنّه مُجرم أُخضــع للتعذيب كى يعترف بذنبه، لكنّه ظلّ صامــداً ولم يكترث بما لقيه من العذاب الأليم. يتذكّر الشــاعر أياماً كان قميصُه جديداً قشيباً لارقعة به فكان يرتديه ويمشى به مختالاً فخوراً لكنّه الآن أصبح وصمة عارٍ بجبينه ورمزاً لخشونة عيشه وفظاظة الحياة:

١. وهــى المعلقــة الّتى جاء فى مطلعها: قفا نبک من ذكرى حبيب ومنزل بســقط اللوى بين الدخول فحومل.

لى نصفية مـــنَ العُمـــــرِ سنيناً غَسَـلتُها ألفَ غَســلَة
ظَلَمَتها الأيامُ حُكماً فأضحت فى العذابِ الأليمِ من غير ذلّة
كُلَ يَوم يحُوطُها العَصـرُ وَالدَّقُ مـــراراً ومـــا تُقَـــرُّ بعَمَلِـــه
أين يمشى بها القديم وذاك التي هـــو فيها خَطرتى والشّـــملـه
حيثُ لا فى أجنابِها رُقعةٌ قَـطُّ ولا فِـــى أكمامِها قـطُّ وَصلَه

(نقلاً عن: ضيف، ١٩٩١م: ٧٨)

من أبرز الشعراء الذين وصفوا فقرهم بأسلوب ساخر "ابن دانيال"، فإنّه وصف داراً له صغيراً يضيق بصاحبه قائماً، وقاعداً، ونائماً على جنبه. يتواجد فى هذه الدار بعوضاً يطـير بجناحيه فإذا تمكّن من العـروق يمتصّ الدماءَ بوخزة أليمة مثلمـا يفعله الفَصّاد. تتســابق الجرذان السريعة فى داره كالخيول الجرداء، كما تصتفّ فيه الخنافس كالزنوج فى طابور طويل. زد على ذلک كلّه أنّ ثياب الشاعر المرقّعه تبدو وكأنّها أرياش الهدهد الملوّنة:

أصبحتُ أفقَر مَن يَروحُ ويَغتدِى مـــا فى يدى مِن فَاقتِى إلّا يدى
فِى مَنزلٍ لم يَحوِ غَيرى قاعـــداً فإذا رَقدتُ رقـدتُ غيرَ ممدَّدِ
وتَرى البعوضَ يطيرُ وهوبريشـة فـــإذا تَمكّن فَوقَ عِـــرقٍ يَفصدِ
والفأرُ يَركُضُ كالخُيولِ تسابَقَت مِن كلّ جَـــرداءِ الأديمِ وأجردِ
وترى الخنافسَ كالزنوجِ تصفَّفت مِن كلّ سَـــوداءِ الأديمِ وأسود
هذا ولى ثـــوبٌ تَراهُ مُرقَّعـــا من كُلِّ لَونٍ مِثلِ ريشِ الهُدهُدِ

(نقلاً عن الصفدى، ١٩٦١م: ٥٦٠/٢)

٦. التندير بالمضامين التغزليّة

لقد ذهبت الفكاهة فى العصر المملوكى كلّ مذهبٍ وتفّنن الشعراء فى أنواع الفكاهة، فإنّهم نحوا بالغزل منحىً فكاهياً بشكل غير مسبوق. إذ راحوا يتغزّلونبالعّجال والطاهى والجزّار والمؤذن ومن شابه ذلک من الذين لم يتغزّل بهم الشعراء فى العصور الماضيةعادةً وممّا لاريب فيه أنّ الدافع الوحيد الذى دفع بالشـــاعر المملوكى إلى هذا اللون الغريب من الفكاهة هو الهزء والســـخريّة وغرس الابتســـامة على شفاه المستمعين. لكن هذا لا

يمنعنــا من القول بأنّ البيئة التى راجت فيها هذه الظاهرة الأدبية بيئة تتخبّط فى الميوعة والاستهجان؛ إليک الآن بعض نماذج من الفكاهة بالغزل.

خُذ الشاب الظريف مثلاً حيث إنه يتغزّل بطباخ مليح فاتر العين:

رُبَّ طَبَّــاخ مَليـح فاتِرَ الطَّــرفِ غَريرِ
مالِكــىّ أصبَحَ لكنَّ شـــغلوهُ بالقُــدُور

(الشاب الظريف، ١٩٩٥م: ١٧٥)

يتغزّل الشــاعر نفســه فى القطعة التاليــة بالمؤذّن الذى خطف قلبه واســتلب فؤاده واســتنفد صبره، وممّا زاد من وتيرة الدعابة فى شعره أنّه كلّما طلب من المؤذّن الوصال رفض المؤذن مكبّراً:

ومــؤذِّن فى حُبِّــه أنا مُغــرَمٌ لا أصــبرُ
كلّما طَلَبتُ وِصَالَهُ أضحَى عَلــىَّ يُكَبِّرُ

(المصدر نفسه: ١٥٧)

لا يخفى أنّ هذه النماذج وما شابهها ناتجة من نتاج البيئه التى اضطربت فيها المعايير الأخلاقية والقيم المثلى، وأنّ الأحداث والظروف الصعبة التى عاناها المجتمع المملوكى قادته نحو الانزلاق فى حالة الفوضى والتردّى ومن ثمَّ انعكست على كافّة جوانب الحياة السياســية، والاجتماعية، والثقافية، والأدبية، ممّا أدّى إلى شــيوع الإباحيّة والميوعة فى الأدب المملوكى شــيوعاً واســعاً، والنماذج الشــعرية التى ذكرناها توّاً خير دليل على توغّل المجون والخلاعة فى نسيج الشعر المملوكى والتمكنّ من جذوره.

النتيجة

توصّلنا من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

اتســعت الفكاهة فى العصر المملوكى اتّســاعاً كبيراً حتى أصبحتْ معلمةً بارزةً من معالم العصر.

امتزج الشــعر الفكاهى فى ذلک العصر بالعتاب والشــكوى، فاكتسب طابعاً دلالياً جديداً استغلّه الشعراء لبلورة حياة الناس الحافلة بالمصائب والرّزايا.

غادر الشـعر فى العصر المملوكى بما فيه الفكاهـة القصور الملكية الفخمة ودخل فى حياة الشعب آخذاً الطابع الشعبى.

احتكّتْ الفكاهة بالظروف السياسـية والاجتماعيّة تنعكس فيها حيث صار الشعر الفكاهى فى ذلك العصر مرآةً صافيّةً تعكس ما يمرّ به المجتمع من أحداث مؤلّمة وكوارث مفجعة.

مارسـت الفكاهة فى العصر المملوكى الدورَ الذى تمارسه وسائل الإعلام فى العصور الراهنة، فكان الشـعراء يركّزون على ما يمـسّ الحياة العامّة من الفقر المدقع والظروف المعيشيّة القاسية شأن الصحافة فى عصرنا الحاضر.

كان المجتمـع المملوكى يعـجّ بالمصائب والكوارث والأوبئـة والمجاعة التى تعصفُ بحياة الشعب وتحصدُ أرواح الناس يوميّاً حتّى تحوّلت الحياة إلى كابوسٍ مروّع.

كان شعر الفكاهة فضلاً عن دوره الهزلى يصوّب النقد اللّاذع إلى الحكام الفاسدين والولاة المنحرفين وقُضاة السّوء.

كان للفكاهـة بالإضافة إلى دورها الترفيهى دورٌ فى التربية والإصلاح، حيث يرمى شـعراء الفكاهة من وراء خلق أجواء ترفيهيّة، إلى الحثّ على إصلاح العيوب وتهذيب أخلاق العامّة.

المصادر والمراجع

إبراهيم، زكريا. (١٩٥٨م). سيكولوجية الفكاهة والضحك. القاهرة: دار المصر للطباعة.

ابـن تغرى بردى، يوسـف. (١٩٨٩م). النجـوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. دمشـق: دار إحياء التراث العربى.

ابن نباتة. (١٩٨٠م). ديوان. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

ابن منظور، أبوالفضل. (١٩٧٥م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

أميرى، جهانگير. (١٣٨٨ش). تاريخ الأدب العربى فى العصر المملوكى والعثمانى. طهران: مطبعة سمت.

أميرى، جهانگير. نعمتى، فاروق. (١٣٩١ش). «التحامق فى الشعر المملوكى». الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ٢٢. صص ٢٤-٤٤.

أميرى، جهانگير. كيانى، رضا. (٢٠١٢م). «السّـخرية مكانتها ومضامينها فى شعر رهى معيرى ومحمد مهدى الجواهرى؛ دراسة مقارنة». مجلة العلوم الانسانيّة الدولية للجمهورية الإسلامية الإيرانية. العدد

١٩. صص ٧٥ –٩٦.
أنس، وئام محمد سيد أحمد. (٢٠١٠م). الفكاهة والسّخرية فى الشعر المصرى. بيروت: مؤسسة الانتشار العربى.
البستانى، فؤاد أفرام. (١٩٥١م). المجانى الحديثة. منشورات الأدب الشرقية. بيروت: لبنان.
بكرى، شيخ أمين. (١٩٨٠م). مطالعاتٌ فى الشعر المملوكى والعثمانى. بيروت: دار الآفاق الجديدة.
الحلى، صفى‌الدين. (١٩٨٠م). ديوان. بيروت: دار الجيل.
خربوش، حسين. (١٩٨٢م). «أدب الفكاهة الأندلسى؛ دراسة تطبيقية». منشورات جامعة اليرموك. صص ٣٤ – ٥٥.
الخليلى، على. (١٩٧٩م). النكتة العربية. عكا: منشورات دار الأسوار.
الركابى، جودت. (١٩٩٦م). الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار. بيروت: دار الفكر المعاصر.
سليم، محمود رزق. (١٣٨١ق). عصر سلاطين المماليک. الجمهورية العربية المتحدة: مكتبة الآداب.
شوكينگ، لوين. (١٣٧٣ش). جامعه‌شناسى ذوق ادبى. ترجمه: فريدون بدره‌اى. طهران: توس.
ضيف، شوقى. (١٩٩٦م). تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والإمارات– الشام). مصر: دار المعارف.
ـــــــ (١٩٩٦م). تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والإمارات– مصر). مصر: دار المعارف.
ـــــــ (١٩٩١م). الفكاهة فى مصر. القاهرة: دار الهلال.
صفدى، خليل بن أبيک. (١٩٦١م). الوافى بالوفيات. تحقيق: هلموت ريتر. بيروت.
طالبى، جمال وآخرون. (١٣٩١ش). السخرية السياسية فى شعر دعبل الخزاعى. الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ٢٥. صص ١٩ – ٣٩.
العبادى، أحمد مختار. (١٩٨٦م). قيام دولة المماليک الأولى فى مصر والشام. بيروت: دار النهضة العربية.
العرينى، سيد الباز. (١٩٩١م). المماليک. بيروت: دار النهضة العربية.
معروف، يحيى. (١٣٨٧ش). «أساليب استعمال الفكاهة فى التصاوير الفكاهية لدى أحمد مطر». الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ١٠. صص ٥٥– ٧٧.
موسى باشا، عمر. (١٤٠٩ق). الأدب فى بلاد الشام. بيروت: دار الفكر المعاصر.
الهاشمى، إسكندر. (١٩٧٨م). المنتخب من الأدب العربى. بيروت: دار صادر.
ـــــــ (١٤١١ق). تاريخ الأدب العربى (العصر المملوكى). دمشق: دار الفكر.